

بين الشريعة والحقيقة

للدكتور عبد الحليم محمود

استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى ،^(١)

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، وهذا في الواقع استعداد نفسي لا يوجد إلا في الغرب الحديث ، ولا شك في أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث في مدى المسؤولية التي تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا ؛ بيد أنه من المدهش أن بعض من يتعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ؛ ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعي أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملي ، ذلك أن الأكثر ، وهو . « التصوف ، يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو . « الشريعة » .

(١) الشيخ عبد الواحد يحيى من كبار المفكرين العالمين ، نشأ في فرنسا كاثوليكيًا ، وانتهى به البحث إلى الإسلام والتصوف ، ومارس التصوف نظريًا وعمليًا ، حتى أبعده أكبر الحكماء في العصر الحديث ، وقد توفي بالقاهرة منذ بضع سنوات ، وترجم كتبه إلى اللغات الحية ، وأثره في الغرب كبير ، إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات في أوروبا كانت باسمه لتتابع أثره وتحذو حذوه ، وهو في هذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظرية خصب .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، إلى الشريعة ، من حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملي منها بالنسبة له .. هذه النظرة تتضمن ، ولو نظرياً ، تقليل أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه . وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذي عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفي ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفي .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالى بما أنزل الله . وإعادة تكوين الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة في طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ومن الطبيعي أن يقوم الجو الديني الذي يعيش فيه الغربيون عقبة في سبيل فهمهم للجانب العملي من الشريعة وممارستها له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الديني ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم . أعني التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسي الذي نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفي الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه في الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مهيمنة في بيئاته .

ثم أن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما خارجي والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن ، من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفي وهي مع ذلك لا تركز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن البديهي أن هذه الجماعات — من وجهة النظر الصوفية الصحيحة — ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء ، إنه لا يثبته على غير أساس ، وكل

فكرة لا تركز على أساس من السنة الصحيحة إنما هي بناء في الهواء ، إنما بناء على غير أساس .

والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لا بد له من أساس مدعوم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لا بد منه لكل سالك ، وكالأساس تماما . لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار المتصوف في طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقا وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضربوا بسهم في الميدان الصوفي ؛ ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي ، ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويحيها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفي .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومي ، كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق

بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ؛ وقد يكون العمل واحدا في نوعه ويؤديه شخصان ، فيوصف عند أحدهما بأنه ديني وعند الآخر بأنه دنيوي ، فإن كان القصد الله فالعمل ديني وإن كان القصد شيئا آخر فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيها تطبيق جزئي لقضية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئا فشيئا ، وها نحن أولاء قد وصلنا في هذا التأخر إلى درجة أن الغرب حاليا يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية في مجتمعاته ؛ لأنه على نهج انفصالي لا يوجد في الحياة السليمة .

ولمّا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إِبْسان ، ولكننا نؤكد - ونحن على يقين من الأمر - لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي ، بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم ياتزموا الشريعة التزاما تاما .
وبالله التوفيق .

بين شقيق البلخي وهارون الرشيد

التقى شقيق البلخي الصوفي الزاهد بهارون الرشيد في موسم الحج ، فقال هارون :
أأنت شقيق الزاهد ؟ قال : أنا شقيق ولست بزاهد ، فقال له أوصني .
فقال : إن الله تعالى أجلسك مكان الصديق ، وإنه يطلب منك مثل صدقه ،
وإنه أعطاك موضع عمر بن الخطاب الفاروق وإنه يطلب منك الفرق بين الحق
والباطل مثله ، وإنه أقعدك مكان عثمان بن عفان ذي النورين وهو يطلب
منك مثل حياته وكرمه ، وأعطاك موضع علي بن أبي طالب وهو يطلب منك
العلم والعدل كما طلب منه .

فقال له : زدني من وصيتك . فقال : نعم ، اعلم أن الله تعالى داراً تعرف
بجهنم ، وإنه قد جعلك بواباً عليها ، وأعطاك ثلاثة أشياء : بيت المال والسوط
والسيف ، وأمرك أن تمنع الخلق عن دخول النار بهذه الثلاثة .

فمن جاءك محتاجاً فلا تمنعه عن بيت المال ، ومن خالف أمر ربه فأدبه
بالسوط ، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف ، يا ذن ولي المقتول ، فإن لم
تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار والمقدم إلى دار البوار .

فقال له : زدني . فقال : إنما مثلك كمثل معين الماء وسائر العلماء في العالم
كمثل السواقي ، فإن كان المعين صافياً لا يضر كدر السواقي ، وإذا كان المعين
كدرراً لا ينفع صفاء السواقي .

قال : زدني . قال :

اجعل الله نجاحك في كل عمل ، واجعله معك في كل نية ؛ وانظر
إلى شئون الناس قبل شئون بيتك ، واحذر أن تنتقص عروة من عرى الدين
في عهدك ، أو أن ينتقص شبر من أرض الإسلام في ولايتك ، فكل امرئ
يوم القيامة يسأل عن نفسه ، وأنت تسأل عن المسلمين كافة .

ثم ولي شقيق منصرفاً . فقال هارون رويدك . حتى . نحسن صلتك ،
فصاح شقيق ، لو أنشدنا صلتك لم نحسن نصحك .